مكانة القرآن الكريم

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

يقول القرطبي في تفسير هذه الآية: «هو حث على تأمل مواعظ القرآن الكريم، وبيَّن أنه لا عذر في ترك التدبر، فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة، أي ذليلة، متصدعة، أي متشققة من خشية الله» انتهى.

ولولا أن الله سبحانه وتعالى جعل في قلوب عباده من القوة على حمل القرآن الكريم ليتدبروه وليعتبروا به، وليتذكروا ما فيه من طاعته وعبادته، وأداء حقوقه وفرائضه لضعفت ولاندكت بثقله، فأين قوة القلوب من

(1) سورة الحشر، الآية: 21.

قوة الجبال؛ ولكن الله تعالى رزق عباده من القوة على حمله ما شاء أن يرزقهم فضلاً منه ورحمةً لما لا تثبت له الجبال.

يقول حسن البنا رحمه الله: «ليس المقصود من القرآن مجرد التلاوة أو التماس البركة، وهو مبارك حقاً، ولكن بركته الكبرى في تدبره وتفهم معانيه ومقاصده، ثم تحقيقها في الأعمال الدينية والدنيوية على السواء، ولهذا كانت الحاجة ماسة إلى التفسير المُفَهِّم الذي تتضح به المعاني والمقاصد بحسب مدارك البشر وما تتسع له عقولهم».

إن القرآن الكريم هو دستور الدين والدنيا، وقد ضمنه الله من علومهما وما يتصل بهما من المعارف ما تتفاوت في إدراكه عقول الناس، وما يزال الزمن والبحث يكشف عن درره وجوهره، ويبين عن غرائبه وعجائبه؛ وأن ما كشفه العقل الإنساني إلى اليوم، عصر الذرة والصعود إلى القمر، بالنسبة إلى ما لم يكشف عنه من أسرار هذا الوجود شيء يسير لا يكاد يقام له وزن، كجزيرة صغيرة في وسط مَحيط عظيم.

فما هؤلاء الجن الذين تخفى علينا حقيقتهم؟ وما هذه الملائكة التي لا ندري كنهها؟ وما هذا البعث بعد أن

تحللت عناصرنا المادية، وردت إلى أصولها الأولية؟ وما هذه الأرواح في هذه الأجساد؟ ونحن لا نحس إلا بهذه العوامل المادية تتصرف في أبداننا؟ فالبرد يؤذينا، والحر يؤلمنا والسم يقتلنا، والطعام يقوينا، والهواء ينعشنا، وكلها من عالم المادة.

وعليه فإن من خصائص العالِم أن يعترف بالعجز والقصور فيما لم يصل إليه علمه؛ ولقد اعترف بذلك أكابر علماء الكون، حتى إن بعضهم ليقول: «إن من خصائص العالِم العصري أن يكون متواضعاً وجريئاً، متواضعاً لأنه لم يصل إلى شيء يذكر من أسرار هذا الوجود، وجريئاً لأن المجهولات التي أمامه من الكثرة بحيث لا يفيد في الكشف عن بعضها إلا الجرأة».

ومن المقرر أن القرآن الكريم قد تعرض لكثير من مظاهر هذه الوجود الكونية، فتناول خلق الإنسان، وتكوين الأرض والسماء، وجريان الشمس والقمر، وتسخير الكواكب والنجوم والأفلاك، وتراكم السحاب، ونزول المطر، وظاهرة الرعد والبرق، ونمو النبات وتنوع أصنافه، وعجائب البحار، وأعلام الطريق، والجبال الرواسي على الأرض، وأطوار الأجنة في بطون أمهاتها، إلى غير ذلك مما يتناوله علماء الكون

بالتمحيص والبيان، وما هو موضوع بحوثهم ومحل عنايتهم وتجاربهم. وكثيراً ما تختم هذه الآيات بالحث على التعقل والتفكر والنظر والتدبر، إشارة إلى أن القرآن الكريم لم يقصد بهذا التعرض تقرير أصول هذه العلوم أو تناول فروعها، ولكنه إنما قصد إلى الهداية وتوجيه الأنظار والنفوس إلى ما تدل عليه من عظمة الخالق وفائدة المخلوق.

فمثلاً إن وصولهم إلى القمر ليس إلا علامة دالة وحجة مقنعة على عظمة الخالق، وعجائب مخلوقاته التي تتحير منها العقول وتأخذ بالألباب وما ذلك إلا ليؤمنوا إيماناً كاملاً ليس فيه التباس أن الله واحد لا شريك له؛ وحتى يتبين لهم أنه الحق، وأنه على كل شيء شهيد، قال تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

وهذا الذي لا يمكن أن يكون محل نزاع؛ هو أن القرآن الكريم حين أشار إلى هذه النواميس الكونية هو القسم الذي تظاهرت عليه الأدلة، وتوافرت الحجج حتى

(1) سورة فصلت، الآية: 53.

كاد يلحق بالبديهيات؛ فلا شك أن ما أشار إليه القرآن الكريم منه يوافق كل الموافقة ما عرفه العلماء الكونيون كإشارته إلى أطوار الجنين، وتلقيح الرياح، وتكوّن السحاب، وغير ذلك؛ حتى إنه من الحق أن يقال إن ذلك من إعجاز هذا الكتاب الذي جاء به أمي لم يتعلم في مدرسة ولم يلتحق بجامعة من الجامعات.

وأما البحوث التي لا تزال في طور البحث العلمي والتي هي عبارة عن نظريات وفروض لم ترق إلى مرتبة الأدلة القاطعة أو الحجج المقنعة، فمن التجني وظلم الحقيقة أن يوازن بينها وبين ما جاء في القرآن الكريم. لأن القرآن لا يبنى على الشك أو الظن والفروض والنظريات، وإنما القرآن مبني على الحق والحقيقة لأنه من عند الحق.

ومن هنا ندرك عظمة القرآن الكريم الذي فيه نبأ ما قبلنا وخبر ما بعدنا والتي لا تنقضي عجائبه؛ ويؤيد ذلك حديث الترمذي عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ستكون فتنٌ كقطع الليل المظلم**». قلت: يا رسول الله وما المخرج منها؟ قال: «**كتاب الله تبارك وتعالى، فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحُكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من**

تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، ولا يَخلِق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً. من عَلِمَ علمهُ سَبَق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هُديَ إلى صراط مستقيم».

قوله: **لا تزيغ به الأهواء**: يعني لا يصير به مبتدعاً وضالاً.

ولا تلتبس به الألسنة: أي لا يختلط به غيره بحيث يشتبه.

ولا يشبع منه العلماء: أي لا يحيط علمهم بكنهه بل كلما تفكروا تجلت لهم معان جديدة.

ولا يخلَق: من خلق الشيء إذا بلي، أي لا يزول رونقه ولا تقل لذة قراءته واستماعه.

من كثرة الرد: أي من تكرار تلاوته.

وعلى هذا يجب علينا تدبره وتفهم معانيه ومقاصده،

وقد قال إياس بن معاوية: «مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلاً وليس عندهم مصباح فتداخلهم روعه ولا يدرون ما في الكتاب؛ ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما في الكتاب».

وأكثر الناس مخافة من الله هم العلماء لأنهم عرفوه حق المعرفة بتفهمهم وتدبرهم للقرآن الكريم. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[1].

يحكى أن طبيباً مسيحياً قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[2]. ففكر هذا الطبيب بعقل سليم بعيد عن الهوى والتعصب وقال: كيف يمكن لنبي عربي أمي نشأ في بلاد قاحلة جاهلة أن يعرف أن هناك أعصاباً تحت الجلد تموت حساسيتها إذا ما احترقت، ويفقد الإنسان الشعور بالألم بعد احتراقها، وأنه لا يتجدد شعوره بالألم إلا إذا أبدلت بغيرها، ذات أعصاب حية غير محترقة، توصل لذعات

(1) سورة فاطر، الآية: 28.
(2) سورة النساء، الآية: 56.

الألم إلى المخ، مع أن الطب في أرقى بلاد العالم وقت ظهور الإسلام لم يكن وقتئذٍ قد توصل إلى إثبات وجود الأعصاب، أو إدراك شيء من حقيقتها ووظيفتها. فآمن هذا الطبيب المسيحي واعترف بأن القرآن الكريم معجزة السماء وأنه من لدن حكيم خبير، يعلم السر وأخفى.

سمع بعض علماء الطبيعة من غير المسلمين هذه الآية: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[1]. فسأل هل ركب محمد البحر؟ فقالوا: لا. فقال: أشهد أنه رسول الله. قالوا: وكيف عرفت؟ فقال: إن هذا الوصف للبحر لا يعرفه إلا من عاش عمره في البحار، ورأى الأهوال والأخطار، فلما أخبرت أنه لم يركب البحر عرفت أنه كلام الله تعالى.

(1) سورة النور، الآية: 40.